

معرض الموت

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

منقولة عن موقع إضاءات

لأنني من عشاق كتابات د. أحمد خالد توفيق منذ الصغر، فقد فكرت في جمع قصصه ومقالاته المجرأة في كتيبات صغيرة، يحتوي كل كتيب على قصة مكتملة أو موضوع مستقل، حتى يسهل على محبيه الاستمتاع بكتاباته الرائعة.

مدونة اقرأ

تاريخية ، ثقافية ، سياسية



معرض الموت

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

رسوم : طارق عزام

منقولة عن موقع إضاءات



رسم الفنان طارق عزام

لا يجب أن نخلط الوقائع ببعضها، فالمصادفات تحدث أحياناً، ولا نريد أن نصل إلى استنتاجات غير ناضجة كما تعلم..

في الصباح عندما يدخل حارس المقبرة يجول بين شواهد القبور، في ذلك الجو البارد الذي يجتاح نيو إنجلاند مؤخراً، وقد بدأت طبقة الجليد الرقيقة تغطي الأرض. البخار يتصاعد من فمه وتلك الرجفة اللطيفة الخفيفة التي يعشقها.

لكنه رأى المشهد من بعيد .. رأى كيف يختلط الجليد مع الوحل الذي خرج من المقبرة. يهرع إلى هناك وتنزلق قدمه على الجليد الأملس ثم ينهض من جديد.

هذه مقبرة آل روبنسون وهي من المقابر الجميلة هنا، وقد اعتنت بها أسرة رؤوم لا تنسى موتها. لكن الأمور لم تعد كما كانت.. يمكنك بسهولة أن تدرك أنه تم حفر المقبرة بعناية .. لماذا؟ كي يخرج أحدهم جثة بالطبع..

المقبرة خالية بالفعل، وقد كانت تخص امرأة اسمها (دوروثي سمارت) توفيت منذ أسبوع. من الغريب أن تتصور أن هناك من جاء ليلاً ومارس أعمال الحفر على ضوء كشاف واهن في هذا الصقيع .. كل هذا دون أن يشعر به أحد..

لماذا يسرق أحدهم جثة؟

حفر القبور وسرقة الجثث body snatching تراث (ثقافي) مهم لدى الغربيين، وبالذات لدى البريطانيين. المشهد الخالد لحفاري القبور الذين يعملون في الظلام على ضوء كشاف.. بالطبع لا بد أن يكونوا ثملين. السبب الأول لشرب الخمر هو بشاعة المهمة وقذارتها .. السبب الثاني هو البرد الشديد الذي يحتاج لقطرات خمر في دمهم. في فترة من الفترات تحول الأمر إلى وباء، وبالطبع لم تكن تُسرق سوى قبور الفقراء. يعملون بعصا خشبية حتى لا تسبب الفئوس ضوضاء. تتم سرقة الجثة، والهدف في ذلك الوقت هو إشباع الحاجة التي لا ترتوي للجثث لدى طلبة الطب. كان علم التشريح يزداد أهمية في

ذلك الوقت. هناك قصة غريبة عن فتاة حسناء تمت سرقة جثتها في القرن التاسع عشر ليرسم الفنانون جثتها العارية، وقد ظلت الجثة تُستخدم كموديل لشهر كامل قبل أن تتحلل. هذه اللوحات موجودة حتى اليوم. وقد نصحت الصحف قراءها وقتها أن يؤجلوا دفن جثث أحبائهم إلى ما قبل التحلل حتى لا تكون ذات نفع لنا بشي القبور.

في عصرنا هذا يختلف الأمر نوعاً .. سرقة القبور تتم ضمن طقوس دينية معينة، أو بغرض مثل التهام الموتى .. هناك جثث تم إخراجها من القبور في لندن، وغرست أوتاد في صدورها بدعوى أنها جثث مصاصي دماء.

دارت هذه الخواطر في ذهني وأنا أقف مع رجال الشرطة أراقب الموقف. بالفعل توجد آثار جر على الثلج، ويبدو أن هناك من حمل الجثة إلى سيارة تقف خارج المقبرة. على الأرجح لم يكن وحده..

هذه مصيبة لدى الكثيرين، وبالتأكيد عبء على رجال الشرطة وتهديد بالفشل، لكنه بالنسبة لي موضوع شائق بالغ الأهمية .. هل هناك خيط يمكن الإمساك به؟

بعد يومين تم نبش مقبرة أخرى. هناك جسد تم جره وتركوا التابوت مفتوحاً ببطانتته المخملية التي اكتست بطبقة تلج رقيقة. كانت السناجب تتواثب فوق الأشجار التي تحيط بالقبور، عندما وقفت أنا والمفتش جارفيلد ندخن ونتكلم. هو يعرف كل شيء عن كتابي (نكروفيليا) ويعرف أنني الألق هذه الحوادث في كل مكان.

ما لا يعرفه المفتش هو أنني وجدت شيئاً احتفظت به لنفسي. كانوا يلتقطون الصور ويفتشون المكان، عندما وجدت تلك القصاصه الصغيرة جوار ممر الجليد. أدركت على الفور أنه رقم هاتف تمت كتابته على عجلة بخط رديء. يسهل استنتاج ما حدث. الذي حفر القبر لم يكن يلبس قفازين أولاً، ثم مد يده في جيب معطفه ليخرج القفاز، وسرعان ما طارت هذه القصاصه .. دسستها في جيبي قبل أن يلاحظ أحد.

قال جارفيلد:

- «الصحافة لم تهتم بالحادث الأول، أما مع الحادث الثاني فلسوف نكون قطعة لحم تُرمى للكلاب. هم في حاجة ماسة لشيء يسودون به صفحاتهم، وقد وجدوه»

قلت وأنا أنفث الدخان:

- «ما زال من السهل أن تحكم مراقبة المقابر. ليس من السهل أن ينبش أحدهم مقبرة ويسرق جثة وينجو في كل مرة. لابد من أن يفتضح أمره .. يكفيك حارس ليلي في كل مقبرة»

- «أنا أعرف عملي»

ملت نحوه وسألته في لهفة:

- «هل تخفون عني شيئاً؟ .. أنا بصدد كتاب وليست مقالة في جريدة. أي إنني لن أذيع شيئاً»

ألقى بلقافة التبغ في الثلج لتصنع حفرة صغيرة وهي تغوص. ثم قال:
- «عد لبيتك يا ويليام .. حتى لو عرفت شيئاً فهو مفيد للتحقيق ولن يذاع..»

ثم نظر في عيني وقال:
- «مهنتنا تعلمنا الشك .. كيف أضمن أنك لست من فعل هذا؟»

قلت لجين وأنا أصب لنفسي كأساً من المارتيني:
- «تصوري .. يقول إنه من الوارد أن أفعل هذا ..»

ضحكت جين حيث جلست تراقب التلفزيون، وقالت:
- «كل من يهتمون بالنكروفيليا هم في قائمة الاتهام»

قلت في عصبية:
- «لو كتبت عن جرائم القتل فلا يعني هذا أنني قاتل .. لو كتبت كتاباً عن الأورام فلا يعني هذا أنني خلية سرطانية»

- «الرجل يؤدي عمله على كل حال»

- «أنت تعرفين يقيناً أنني لا أغادر البيت بعد العاشرة ليلاً أبداً .. على الأقل مؤخرًا. أمقت البرد وأحب عملي»

- «وتمقت الضيوف كذلك»

تركته ورحت أفتش عن صاحب الرقم الذي وجدته فظهر لي اسم (ماكس برودسكي).. بحث سريع على شبكة الإنترنت أظهر أن ماكس برودسكي مصور..

ماكس برودسكي... يبدو لي الاسم مألوفاً....

ثم بدأت أتذكر...

ألبوم وقع في يدي منذ عامين، وكان لفنان تصوير يبدو أنه من أوروبا الشرقية .. معظم الألبوم كان يمثل موديلات حسناوات في ثياب ههههه شفافة، وقد اتخذن أوضاعاً أقرب للموت .. بعضهن كن نائمات في توابيت، وبعضهن مالت رؤوسهن إلى جنب كأنهن مشنوقات. بعض الصور كانت تظهر جثة طافية فوق صفحة المياه على طريقة لوحة أوفيليا الشهيرة...

كان هذا الألبوم جنة لمن هم مولعون بالموت ..

فتشت في شبكة الإنترنت عن صفحة الفنان، فوجدته .. لم أعتد قط أن أشعر براحة تجاه الرجال الذين يطيلون شواربهم ليوصلوها باللحى.. تشعر بتأثير شيطاني معين في الوجه، وما يزيد الطين بلة أن يكون الرأس أصلع حتى يقترب في ملامحه من لافي صاحب كنيسة الشيطان.

هذا وجه مناسب جدًا ... ومادة دسمة لكتابي لم أفطن لها من قبل.

الأهم هو أن تجد رقم هاتف هذا الرجل بالذات جوار قبر منبوش. لا أعتقد بالطبع أن الناس يمشون حاملين أرقام هواتفهم في جيوبهم، لكن من الوارد جدًا أن يكون من نبش القبر مرسلًا من ماكس، وكان يحمل الرقم في جيبه.

دخلت إلى مكتبي وأمسكت بالرقم وضغطت على مفاتيح الهاتف.



رسوم الفنان طارق عزام

كان هذا هو الموعد. قلت لجين إنني سأقابل ذلك الرجل المريب في التاسعة مساء. قالت إنني أضيع وقتي مع المخابيل، لكن الإجابة كانت حاضرة قاطعة: أنا أجري بحثًا علميًا. طلبتُ مني أن أرثدي ثيابًا ثقيلة نوعًا، الجو بارد حاليًا خاصة في الليل. أمقت أن أعامل كطفل لكني فعلت ذلك.

يقيم برودسكي في بيت كبير في إحدى ضواحي فيرمونت .. هذا هو العنوان الذي ذكره لي.

كان البيت يبدو جديرًا بإحدى قصص ستيفن كنج. لا تنس أننا قرييون من ولاية مين جدًا .. بانجور مين حيث تقع معظم قصص ستيفن كنج المرعبة.

طبقة جليد خارج البيت .. يمكنك أن تدور حوله لترى المرآب وفيه سيارة عتيقة غلف عجلاؤها بالجنازير. يمكنك أن ترى رفشًا وفأسًا و.. أشياء تصلح جدًا لنبش مقبرة، لكنها كذلك قد تكون بريئة .. ثم من قال إنه يفعل هذا؟ لقد استنتجت أنه كلف واحدًا آخر بهذا..

قرعت الباب فانفتح لأرى ذلك الوجه الذي أمقته. أنطون لافي تقريبًا .. رأس أصلع ولحية متصلة بالشارب تحيط بعم مزوم بعصبية. هذا الرأس يطل من ياقة بول أوفر سميك. لو قرر الشيطان التجسد فلن يسعفه خياله بصورة أفضل..

قلت له في أدب:

- «مستر برودسكي .. أنا ويليام جولدمان .. اتصلت بك بصدد ...».

- «لوحاتي الفوتوغرافية .. أعرف هذا ..».

هكذا وجدت نفسي في بيت واسع مريح. هناك كلب لبرادور جميل يتواثب من حولي. هناك مكتب من طراز عتيق .. أنا لا أفهم في طرز الأثاث لكن أحسبه ثمينًا .. هناك مدفأة .. هناك مكتبة، وهناك عشرات الصور الفوتوغرافية لموديلاته الميئات..

صب لي كأسًا من الشراب، وقال وقد لاحظ نظراتي:

- «كل موديلاتي من أوروبا الشرقية من حيث جنس .. ثمة سحر معين في النساء في تلك البقعة. الجمال الثلجي البارد الشمعي الذي يوحي بالشهوة ويوحى بالقسوة ويوحى ببرودة الموت .. يمكنك أن تتخيل كل فتاة في هذه البلدان وقد صارت مصاصة دماء».

قلت في انبهار:

- «هذه لوحات مذهلة .. الرسم بالكاميرا بالمعنى الحرفي، لكني لم آت من أجل الفن».

وضع ساقًا على ساق وربت على رأس الكلب:

- «زيارة لفنان تصوير من شخص لا يبالي بالتصوير .. هل لي أن أفهم؟».

قلت في حذر:

- «أكتب كتابًا عن النكروفيليا .. لدي مراجع عديدة، لكني لاحظت افتتاحك بالموت وقررت أن أخذ آراءك كمرجع ...».

- «حقًا أنا مفتون بالموت ولهذا قصة طويلة ..».

ثم قال وهو يضع الكأس وينهض:

- «هناك معرض صور مذهل في القاعة المجاورة .. كلها صور أصلية دفعت فيها مبلغًا هائلًا من المال .. لا يفعل هذا سوى عاشق حقيقي للموت».

الكلب يتواثب حولنا وأنا أمشي خلفه إلى القاعة التي ذكرها.

هنا فهمت على الفور ما يتكلم عنه.

في العصر الفكتوري انتشرت عادة شنيعة لدى الناس، خاصة مع كاميرات داجير البدائية. كل أسرة تفقد واحدًا من أفرادها تقوم باللباس هذا الشخص ثيابًا عادية يومية، مع فتح عينيه الميئتين، ثم يجلس

أفراد الأسرة حوله كأنها صورة عائلية هادئة. هذا هو تعبيرهم عن حبه للمتوفى الذي يريدون أن يظل معهم للأبد.

النتيجة هي مجموعة شنيعة من الصور لأشخاص ميتين يجلسون بين أحياء، ومن الصعب أن تصدق أنهم موتى. إن الإنترنت يعج بهذه الصور، وسوف تلاحظ علامة مهمة هي أن الأحياء تبدو صورتهم مهزوزة بينما الميت تبدو صورته واضحة حادة التفاصيل. في ذلك العصر كان عليك أن تبقى أمام الكاميرا نصف ساعة بلا حراك حتى لا تكون صورتك مهزوزة. بالطبع يتحرك الأحياء مع التنفس بينما الموتى لا يتنفسون. هناك قصة من هذا النوع مع الصورة الرئاسية الشهيرة لأبراهام لنكولن. كان قد وضع ساقاً على ساق وظل أمام الكاميرا نصف ساعة. لاحظ المصور أن ركبة لنكولن مهزوزة في الصورة. تبين السبب فيما بعد وهو أن ركبة لنكولن كانت تهتز طيلة الوقت؛ لأنه كان مصاباً بارتجاج في صمام الأورطي، وهي العلامة التي سماها الأطباء فيما بعد (علامة لينكولن).

كل الصور المعلقة أصلية تبدو عليها مخالب الزمن .. صبغة الأيام البنية المصفرة والتجاعيد. صحيح أنها لوحات محمية خلف إطار زجاجي، لكن الزمن أقوى بالطبع. عندما تتصور أن هذه الفتاة الرقيقة الجالسة بين أبويها ميتة، وأنها لن تلتقط أي صورة أخرى معها، أو أن هذا الطفل الضاحك على حجر أمه قتله الدفتريا ولن ترى وجهه بعد اليوم. عندما ترى هذه الصور ترتجف رعباً .. لها تأثير مقبض عجيب، والحمد لله أن هذه العادة قد انقرضت..

لكن برودسكي قد استطاع الحصول على مجموعة مذهلة .. لا بد أنها لا تقدر بثمن..

قلت له في افتتاحان:

- «أنت ثري جداً».

قال في لا مبالاة:

- «عندما يتسلط عليك وسواس فأنت تبذل المال رخيصةً من أجله. كل هاوي صور قديمة في العالم يعرف أنني أشتريها بسعر باهظ».

- «هل تسمح لي بأن ألتقط بعض الصور لاحقاً؟».

لم ينظر لي .. فقط غادر القاعة وأنا خلفه وهو يقول:

- «بالطبع لا .. هذه صور أصلية وحساسة للضوء جداً .. كل المتاحف المحترمة لا تسمح لك باستعمال الفلاش في النقاط صور محتوياتها. كادوا يفتكون بي في متحف الأرميناج لأنني حاولت».

عندما عدنا لقاعة الجلوس كنت أشعر بانقباض هائل في صدري بعد رؤية المعرض الرهيب. لا بد أن هناك خمسين صورة من هذا الطراز عند الرجل.

جلست على أريكة وتأملت المكان من حولي .. هناك رف رصت عليه شرائط فيديو وأقراص مدمجة. هناك جهاز فيديو في الركن. كل جهاز فيديو صار عتيق الطراز بعدما انقرض هذا الاختراع أصلاً. لكن عناوين الأفلام تدعو للتأمل: وجوه الموت - موندو - إلخ..

أي أنها تلك الأفلام شبه التسجيلية التي تجمع لقطات حقيقية للحظات موت ناس .. لحظات بشعة على الأرجح مثل رجل تلتهمه الأسود أو رجل يمزقه قطار..

ترى أين يحتفظ بمجموعته من الأطراف المبتورة من جنث؟ بل أين يضع الجنث نفسها؟.

يجلس برودسكي أمامي وهو يداعب عنق كلبه، والكلب يزوم في مزيج من الاستمتاع والتهديد لي..

هذا رجل فريد .. هذا هو الرجل الذي أحتاج لوضعه في كتابي..

النقطة الثانية المهمة، هي أنه لو كان في الولايات المتحدة كلها رجل ينبش القبور ويخرج منها الجنث، فلا بد أنه هذا الرجل..



رسوم الفنان طارق عزام

عدت للبيت فأخرجت طعام العشاء من الثلاجة. وجلست ألتهم طعامي. جاء صوت جين التي صحت من نومها تسألني عما هنالك. قلت بقم مليء بالطعام:
- «أنا هنا يا ملاكي.. لا تقلقي»

ثم أنهيت طعامي فصببت لنفسي بعض الشراب وعدت لها حيث جلست في غرفة الجلوس تراقب التلفزيون. سألتني دون أن تنظر لي لانهماكها مع مسلسل سخيف:
- «كيف الحال؟»

قلت في حماسة:
- «رائع.. لو أن إد جين الذي كان يسلخ النساء ويصنع من جلودهن عباءة عاد للحياة فلن يكون سوى هذا الرجل!»

- «هل ثمة علامات على أنه من ينبش القبور؟»

- «لا علامات مباشرة. لكن اهتمامه بالموت مريب. كل العلامات تشير إلى أنه هو الرجل. لا بد أن أتصق به لفترة»

قالت في استبشاح:

- «لا أعتقد أنها صداقة محببة.. هي كذلك خطرة»

قلت في إصرار:

- «هذا كتاب علمي.. من يكتب كتابًا عن الدرن لا بد أن يقضي وقته وسط مرضى الدرن.. لن يذهب لينعم بالهواء الطلق في الكاربيبي ويكتب كتابه».

ثم طلبت منها أن تصمت.. لا أحب إطالة الجدل. هذا عملي في النهاية وشأني الخاص.

وكيف لي أن أعرف أن مايكل سيرل كان قد بلغ ذروة تحمله في ذلك الوقت؟ لقد صبر لفترة طويلة، لكن كل يوم كان يفقده صبره أكثر..

هناك كان يجلس في سيارته الليكساس يراقب البيت من بعيد. وأثار دهشته أن نفس الرجل الغريب صار يتردد على البيت في نفس الساعة من كل يوم، وهو يعرف يقينًا أن صاحب البيت لا يزوره أحد. ما زالت الذكرى تطارده..

المهندس الناجح مايكل سيرل والأسرة الهادئة الجميلة. زوجته بيتي وطفله بيبي والكلب اللطيف والحديقة وأعياد الشكر والكريسماس.. الغد ممتد للأبد كطريق تحفه الورود. كان يوقن أنه من القلائل المحظوظين الذين هزموا الخوف.

اضطرته ظروف السفر إلى قضاء أيام في كاليفورنيا. بعد أيام عاد إلى بيته الجميل..

منذ اللحظة الأولى شعر بدهشة لأن الكلب لم يخرج للقائه.. فتح الباب فلم يخرج بيبي للقائه.. في الداخل لم تأت بيتي للقائه.. أين ذهب الجميع؟

دخل متوجسًا إلى غرفة الجلوس فرأهم. بعد أن ظل يصرخ لربع ساعة اتجه إلى الهاتف ليطلب الشرطة. واكتشف أنه بلل سرواله لأنه لم يعد يتحكم في عضلاته العاصرة..

لم يكن المشهد شنيعًا.. كل واحد منهم قتل برصاصة رقيقة أنيقة في القلب. كأن من قتلهم لم يرد أن يفسد شيئًا. ثم تم وضعهم في المقاعد بشكل أنيق ليبدو كأن بيتي مسترخية والطفل على حجرها، ودارى مواضع ثقوب الرصاص بشرائط لاصق ملون. حتى الكلب تم وضع دعومات لتجعله كأنه قابع على

السجادة وقد رفع رأسه وخرج لسانه في مرح. تمت خياطة الجفون لتظل مفتوحة. قال المحقق إنه من الواضح أن الجريمة تمت أمس لأن الجثث بحالة ممتازة.

لماذا؟ لماذا يعمد القاتل إلى وضع قتلاه في هذا المشهد العائلي المبهج؟

احتاج الأمر لشهر في المصحة وأطنان من المهدنات إلى أن استعاد روعه. هذا ما عرفته فيما بعد.

ظلت علامات الاستفهام تحوم حول هذا اللغز إلى أن رأى صورًا فكتورية للموتى. تلك العادة الكريهة التي انقضت لحسن الحظ. هنا أدرك أن الموتى يجلسون في أوضاع شبيهة جدًا بأوضاع أسرته التي ماتت عليها.

ظلت علامات الاستفهام تحوم في ذهنه، إلى أن رأى صورًا معاصرة لموتى. تمت معالجتها لتبدو فكتورية، لكن الثياب والملاحم وتصنيفات الشعر عصرية جدًا.. هناك مجنون قرر أن يعيد هذا التقليد الفكتوري. كان هذا موقع إنترنت صربي يبيع لوحاته الرهيبة هذه، زاعمًا أن لديهم مصورًا عبقرياً يعيد استنساخ تلك الصور العتيقة. اتصل بالموقع وعرض شراء بعض اللوحات...

عندما حصل على نسخ مكبرة من هذه الصور راح يدرسها بعناية.. أدرك على الفور أن هؤلاء الموتى معاصرون جدًا. ثم أن هناك علامة يعرفها.. الأحياء تكون صورهم مهتزة في تلك الصور بينما تكون صور الموتى ثابتة محددة لأنهم لا يتنفسون. هنا في هذه الصور يبدو كل شيء ثابتًا محددًا.. أي أن كل من في الصورة موتى. السبب واضح. لا يوجد في عصرنا هذا من يرغب في التقاط صورة جوار موتاه. كل من في هذه الصور موتى..

أو ربما هم مقتولون.....؟

صار كذلك على ثقة بأنه لو انتظر وفتش جيدًا فلسوف يجد صورة أسرته. لو لم ينشرها المصور فهي ضمن مجموعته الخاصة..

ترى هل الموقع متورط؟ بالطبع لا. لا يوجد موقع إنترنت ينشر صور أشخاص قتلهم. على الأرجح يبيع المصور صورته زاعمًا أنها أوضاع تمثيلية فنية..

اتصل بالموقع بريديًا، وتظاهر بأنه صحفي يريد إجراء حوار مع المصور العبقرى، فجاءه الرد بالبريد الإلكتروني:

- «يسرنا أن أعمال الفنان ماكس برودسكي قد راقت لك. ويسرنا كذلك أن نخبرك أن المصور العبقرى يقيم في الولايات المتحدة في فيرمونت. لإجراء حوار يمكنك الاتصال به على رقم.....».

ماكس برودسكي؟ صار على يقين أنه سيجد صورة أسرته القتيلة عند الفنان المزعوم. وهكذا يكون قد عرف القاتل.. أما عن سبب القتل فهو - ببساطة - لأنه مجنون.

استطاع أن يعرف عنوان ذلك البيت في ضواحي فيرمونت. وأمضى بضعة أيام يراقب المكان. يمكنه أن يدرك أن هذا الفنان مريب يتلقى زيارات عجيبة. لا يمكن أن يكون هؤلاء الزائرون موديلات. هم يبدوون كاللصوص أو رجال العصابات، أما الفنان نفسه فيبدو وغداً..

ليس المسدس.. يريد ميتة عنيفة دامية للرجل، لهذا ابتاع بلطة ومجموعة من المدى وكماشة لانتزاع الأظفار، لكن المرء لا يقتل رجلاً آخر لمجرد شكوك باهتة كهذه..

هو بحاجة إلى أن يجد صورة أسرته في بيت ذلك الرجل الكريه..

هو بحاجة إلى الدخول والتفتيش....



للأسف لا يملك المرء قدرة الرواي العليم بكل شيء في القصص. لهذا لم أستطع وقتها أن أعرف باقي تفاصيل هذه القصة. كنت أعود لجين العزيزة فأكلمها عن برودسكي، ثم أتناول عشائي، وأمضي الليل في وضع فقرات جديدة من كتابي..

قالت لي جين في أسي:

- «لم تعد تهتم بي تقريباً ... لقد استحوذ الكتاب عليك»

قلت لها إنني أكره تلك اللحظة التي يقلن فيها كلهن نفس الشيء لأزواجهن. كل زوجة تتوقع أن يدور الزوج حولها حاملاً البخور، ثم يلثم قدميها ويقعي ككلب..

قالت لي إنها تحلم بأن تظفر بصحبة في هذا البيت الكئيب. لماذا لا تنجب؟ قلت لها إنني سأجلب لها صحبة بالتأكيد. الحق إن عاداتي تغيرت.. كنت لا أغادر البيت بعد العاشرة مساء أبداً، فصرت أغادره كثيراً..

الحقيقة أن برودسكي ومعرضه الغريب استحوذا على تفكيري فعلاً.

ما لم أعرفه هو أن جماعة (ريبيرث) كانت في حالة عارمة من الغضب والضيق. وأنت تعرف أنهم خطرون..

بدأ كل شيء أمام ذلك القبر المنبوش في إحدى المقابر المجاورة. تلك الأماكن الكئيبة المكسوة بالجليد والشواهد التي يتدلى منها الثلج.

هناك وقف هؤلاء الأربعة ينظرون لقبر (ألان رادكليف) غير مصدقين. ثمة وغد ما قد جاء ليلاً ونبش المقبرة وسرق الجثمان. كانوا قد سمعوا عن جرائم مماثلة في الفترة الماضية لكن لم يجلب بخاطر واحد منهم أن يحدث هذا لآلان..

قال مارك وهو يضم المعطف الأسود إلى جسده ويرتجف من البرد. كان فارغ القامة له عينان وساعتان محاطتان بالسواد تذكر أنك بعيني الراكون :
- «الأمر جد خطير .. فلنعد ونتكلم عندي»

وفي خفة عاد أربعة الرجال إلى السيارة، وانطلقوا قاصدين بيت مارك الذي حوله لدار عبادة خاصة بهم. إن حرية العبادة مكفولة عندنا في الولايات ويمكنك أن تؤكد أن دينك يحتاج لوجود تماسيح في دارك، ليسمح لك رجال الشرطة بذلك. لكن جماعة (ريبيرث) كانت تؤمن بالسرية وبأن دينهم ليس للتبشير. لا نريد أتباعاً.. دعني أترف لك أن طقوس عبادتهم كانت وحشية أو شبه وثنية في لحظات بعينها. خليط عجيب من المانوية والبروتستانتية وعبادة الشيطان. خليط لا يخرج إلا من عقل مخبول والمخبولون - كما تعلم - لهم تأثير قوي عبر التاريخ.. إنهم يجيدون خداع الناس دائماً.

لكن عقيدتهم هذه كانت تقضي بأنهم يجب أن يخرجوا زعيمهم من القبر ويحنطوه ويحتفظوا به للأبد. مات آلان رادكليف زعيمهم ومؤسس الحركة بالسرطان منذ أيام، وقد هرعوا جميعاً لقبره وهم يحملون أدوات الحفر لإنقاذ دينهم. هنا اكتشفوا أن وغداً ما سطا على المقبرة قبلهم.

كان هذا خطيراً، ومعناه أن أرواحهم قد ضاعت للأبد. سوف يذهبون لهيدز مملكة الموتى الجحيمية ويتعذبون دون أمل في الخلاص.

هكذا اجتمعوا في دار مارك، وراحوا يلهثون من البرد. أعد لهم مارك بعض النبيذ الساخن الممزوج بقطرات الدم من أجل الدفء وظلوا يرمقون نيران المدفأة لنصف ساعة..

في النهاية قال مارك:

- «نحن في مأزق.. يجب أن نجد جثمان الأخ الأكبر رادكليف قبل أن يتحلل أو يتبدد»

- «وإلا هي هيدز»

كان عدد أتباع الجماعة أربعين ألفاً في الولايات.. لا يعرف هؤلاء الأربعون ألفاً أن أرواحهم مهددة. والمشكلة أن هؤلاء هم حراس قبره..

قال مارك :

- «لا يوجد حل سوى طلب عون الشياطين.. هي ستخبرنا بالسر»

- «لكن هذا مخيف»

- «وما نحن فيه مرعب»

تشتعل النيران في المدفأة بينما يضع مارك العباة السوداء على كتفه. يلبسون جميعاً نوعاً من المسوح، وبالطبع يرسمون على الأرض النجمة الخماسية.. يطفنون الأنوار فلا توجد سوى شموع مشتعلة وضوء المدفأة..

يسكب مارك دم دجاجة ذبحها حالاً على النجمة. يلتفون حول جمجمة.. الخلاصة أنهم مارسوا الروتين القدر الذي يلجأ له السحرة في الاتصال ببهيموت. وراحوا يرقصون حول النجمة كالمجانين.

في النهاية تشابكت الأيدي، وبدا أنهم جميعاً يرون ذات الرؤيا في لحظة واحدة.

همس مارك من بين أسنانه:

- «أنتم ترون ما أراه.. أليس كذلك؟»

- «بلى»

- «قد تكلمت الشياطين»

- «اسمه ماكس برودسكي»

- «نرى وجهه. إنه يشبه لوسيفر نفسه»

- «يعيش في فيرمونت.. نرى داره وسط الثلوج»

- «نعرف أن أخاننا هناك»

عندما انتهت الطقوس راحوا يلهثون وارتموا على الأرض في إعياء، لدرجة أن مارك راح ينزف من أنفه من فرط الضغط العصبي. كان العرق يغمر جبهته ويتوهج في النيران..

قال لهم:

- «سوف نذهب هناك ونأتي بأخي.. أما من فعل هذا فليندمن أشد الندم»

عرفت هذا كله من الصحف فيما بعد.. لقد نشرت الجماعة مذكراتها مسلسلة لمدة شهرين كما تعلم. عدة صحف اشترت حق النشر.

عرفت كذلك أنهم حملوا ما يلزم من سلاح واختاروا سيارة ذات حقيبة كبيرة لتتسع للجثمان، ثم انطلقوا نحو البقعة التي رأوها في أحلامهم.

توقفت السيارة وسط الأشجار، ثم هتف مارك وهو يرفع قلنسوة السترة (أنوراك) لتغطي رأسه وأذنيه:
- «سوف نتحرك يا شباب.. معلوماتي أنه يعيش وحده»

هتف أحدهم وهو يشير لسيارة ليكساس تقف بعيداً وسط الأشجار:
- «من هذا؟ هذه ليست سيارته.. يخيل لي أنه متلصص مثلنا»

- «لو كان ضيقاً فهو حظه العاثر.. سنجده في الداخل، وليكتشفن أنه الشخص الخطأ في المكان الخطأ..»

وفي ببطء بدأ الرجال يتسلحون ويتأهبون للتحرك...

الليل يرخي ظلاله، وهذا سيجعل الأمور أسهل بالتأكيد..

لا تقلق أيها الأخ رادكليف. لن تمر الليلة إلا وموميائك في معبدنا.



رسوم الفنان طارق عزام

هناك دائماً نافذة قبو صالحة للاقتحام في هذه البيوت. كل بيوتنا حصون مفتوحة لمن يريد الدخول، وقد استطاع أعضاء جماعة ريبيرث أن يدخلوا...

كان هذا قبواً.. الثلج يتكاثف على زجاج النافذتين الصغيرتين، لكن واحدة منهما تهشمت. وعبر الزجاج المهشم تسلل الرجال واحداً بعد الآخر.

الرائحة كانت غريبة.. عطنة. يمكن بسهولة أن تخمن وجود أجسام متحللة هنا. تبادل الرجال النظرات، ثم أدركوا أن هذه الأحواض جوار الجدار ليست أحواض سمك.

- «يا لموهول!» -

موهول هو إله من آلهتهم. معنى الكلام هو (رباه!). وانطلق شعاع خافت من النور يتفحص الأحواض الزجاجية. كانت مليئة بسائل شفاف لعله الفورمالين، وفي السائل يسبح جسد.. لعله متحلل أو سليم.. لكنه ميت جداً...

برغم أنهم رجال أشداء خلقوا ليثيروا الخوف، فإن أنفسهم طارت شعاعاً لهذا المشهد الغريب. هناك نحو ستة أجساد مغمورة، وهناك أكثر من دن ثقيل لابد أنه يحوي كيماويات التحنيط.

راح مارك يتفقد الوجوه، ثم تصلب أمام وعاء زجاجي وهتف:
- «هذا هو أخونا.. رادكليف هنا.. لقد صدقت الرؤيا».

تكأكا الجميع ينظرون في احترام ورهبة إلى وجه أخيهم الأكبر الطافي وسط الفورمالين. يعرفون أن عليهم أن يحرروه ويلفوه في بطانية ويحملوه لمعبدهم..

- «ليس بعد..» -

قالها مارك وهو يخرج مديته اللامعة، ويلوح بها:
- «الذي فعل هذا ودنس قبره سوف يدفع الثمن»

- «أجل..» -

وهكذا خرج الرجال الغاضبون من القبو، يلقي ضوء الكشاف ظلال الغيب على الموجودات فتدب فيها روح خاصة.. خرجوا إلى قاعة ممتدة كأنها معرض. ونظرة منهم إلى الجدران جعلتهم يدركون أنها كلها صور فكتورية الطابع لأشخاص ينظرون للكاميرا، عندما كان اسمها (داجيريت).. ما هذا المكان؟ وما سر هذه الصور..

على باب الغرفة الأخرى كان هناك كلب مقتول.. كلب لبرادور جميل للأسف. لماذا يمتلك أحد الأشخاص كلباً مقتولاً يسيل منه الدم مهما كان مخبولاً؟

دخلوا القاعة التالية التي تبدو كأنها غرفة جلوس.. مكتب من طراز عتيق ومدفأة.. ثم تصلبت عيونهم إذ رأوا - في ضوء لهب المدفأة - رجلاً يركض نحوهم طالباً الغوث، وقد بدت عليه أفضع علامات الرعب.. كان رجلاً وسيماً وعلى قدر من الرقي، لكن الهلع بدل ملامحه تبديلاً. لم يكن هذا هو الوجه الذي رأوه في الرؤيا.

صرخ وهو يترنح:
- «اهربوا! الشيطان يسكن هنا! إنه الشيطان!!»

لم ينتظر مايكل ليفهم، بل عاجل المهندس المذعور سيرل بطعنة نافذة في صدره، وسرعان ما انهالت عليه الطعنات من الغاضبين. لم يعرفوا جرمه ولا سبب قتله، لكنه موجود هنا وكفى. وكما قال مايكل من قبل:

- «لو كان ضيقاً فهو حظه العاثر.. سنجده في الداخل، وليكتشفن أنه الشخص الخطأ في المكان الخطأ..»

هنا تصلبوا.. رفعوا رؤوسهم فأدركوا حقيقة ما يتدلى من السقف.. كان هذا هو الوجه الذي رأوه في رؤياهم. ماكس برودسكي الذي يشبه الشيطان. كان يتدلى مشنوقاً من السقف، وهو ينظر للعالم بغباء من حوله...

من قتله ومتى؟

هنا خرجت من موضعي خلف المكتب ووقفت أمامهم..

عرفوا على الفور أنني لست كما أبدو.. تساقطت المدي من أيديهم وهم يتراجعون، بينما بدأت أتقدم منهم ببطء.. قلت لهم:
- «لقد مات برودسكي، وورثت أنا كل هذا المتحف بما فيه من صور وما في القبو من جنث سرقها.. كان هو تجسد أنوبيس. ابن أوى.. حارس المقابر والمسئول عن التحنيط لدى الفراعنة، ظلت أجمع معلومات لكتابي عدة أعوام، إلى أن وجدت الرجل الذي أبحث عنه.. الرجل الذي قررت أن أكون بدلاً منه. عندما وجدته قتلته لأكون أنا التجسد الجديد...»

ثم رفعت يدي منذرًا:
- «والآن أيها الصبية.. غادروا المكان حالاً قبل أن ينفذ صبري!»

لم ينتظروا أوامري.. عندما رأوا وجهي وسمعوا صوتي، عرفوا أنني بحق قد نطقت.. أنا هو الموت نفسه.. سرعان ما ركضوا هاربين من حيث جاءوا وسمعت محرك السيارة...

لم تعد جين تعيش معي في بيتي.. جين الرقيقة الحسنة أخذوها مني، ودفنوها تحت التراب.. القتلة!

قال لي دكتور (ستيف) وهو يقلب صفحات ملفي:
- «هل سمعت عن دكتور كارل تانز لر؟»

- «طبعاً»

لم يهتم.. كان يريد أن يواصل الكلام:

- «كان ألماني المولد لكنه يعيش في فلوريدا، وكان يعشق زوجته الكويتية إيلينا ميلاجرو، فلما توفيت بالدرن تسلل لقيبرها بعد شهرين، وسرق جثتها وعاد بها لبيته.. وعاش معها.. عندما سقط جلدها أصلحه، وعندما سقط شعرها صنع لها جُمَّة منه.. وكان يسكب عليها العطور والمطهرات ليخفي رائحتها. ظل معها سبعة أعوام كاملة حتى انكشف أمره ودفنوها. أعتقد أنك تعيد نفس قصة تانزلى. أنت عشت هنا عدة أعوام تكلم جثة متحللة محنطة، وتكتب كتابًا غامضًا عن النكروفيليا وتزور أشخاصًا غامضين»

يريد إقناعي أن جين ميتة وأن كل كلامها معي كان وهمًا في ذهني.. يريد إقناعي أن كتاب النيكروفيليا وبرودسكي والمهندس وجماعة ريبيرث كلها خيالات صنعتها لنفسي، لأنني أعشق الموت.. ولأن حبي لزوجتي وفقدها قد جعل أسلاك عقلي تحترق كلها..

هذا الرجل يهذي. يومًا ما سأخرج من هذه المصححة، وأعود لذلك البيت وسط الثلوج في فيرمونت.. سأجد أفراد جماعة ريبيرث وسوف يحكون لهم عن لحظة التحول التي رأوها جميعًا عندما صرت أنا أنوبيس...

يومًا ما سأجد جين من جديد، ولسوف تعيش معي للأبد...

سيرون... سيرون.

تمت